قضية

«الروس قادمون»: رُهاب الحرب الجديدة

«خلافاً للرأي السائد، لا تزال روسيا تُمثّل التهديد الأخطر على الأمن القومي الأميركي». كتب في عام 2006 الباحث الأميركي ستيفن كوهين، في مقالة بعنوان «الحرب الباردة الجديدة»، نشرها موقع «ذا نيشن». البروفيسور المتخصص في الدراسات الروسية في جامعتي «برينستون» و«نيويورك»، توقع في حينه «العودة الحتمية» للحرب الباردة، مؤكّداً دخول العالم في «حالة سياسية» شبيهة بتلك التي كانت موجودة بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة والاتحاد السوفياتي وحلفائه من جهة أخرى، في المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية

الرهاب الهستيري من الروس متفشّ نتيجة التهويل المستمر (كيريل كودرفاستيف)

رنا حربي

«الروس قادمون»، عبارة تكاد تختصر حالة الذعر التي سادت بلدة فادسو الواقعة على الحدود النرويجية الروسية الأسبوع الماضي، عقب سماع صفارات الإنذار لمدة 15 دقيقة إثر خلل فني. انهالت الاتصالات، من منتصف الليل حتى ساعات الصباح الأولى، على مركز الشرطة في البلدة النرويجية، في حين ارتفعت الأصوات المحذرة من احتمال اشتعال الجبهة مع الدولة المجاورة، روسيا، على الرغم من استقرار العلاقات بين البلدين اللذين يتشاركان حدوداً برية تمتد على أكثر من 196 كيلومتراً، وأخرى بحرية بطول يوازي 24 كيلومتراً.

فادسو لم يدخلها أيّ جندي روسي منذ أواخر الحرب العالمية الثانية، لكن ردّ الفعل غير العادي لقت الأنظار، إذ أكد أنّ أطياف حملات «شيطنة» موسكو ورئيسها باتت مهيمنة: «خلل فني» في بلدة نائية لا يتعدى عدد سكانها ستة آلاف نسمة، رفع الغطاء عن «كابوس الحرب» الذي يُلاحق سكّان الدول المجاورة لروسيا، وفضح «الرهاب الهستيري من الروس»، المتفشّي نتيجة التهويل المستمر بـ«الخطر الروسي».

في المشهد العام، وعلى مدى السنوات الماضية، وتحديداً منذ إشعال الجبهة الأوكرانية عام 2014، كانت نسب

> ما نراه هو ثمرة سنوات من التراجع الأميركي والتقدّم الروسي

النجاح الروسي في الحدّ من وطأة هذه الهجمات الإعلامية تتفاوت، لكن هذا لم يمنع الطرف المقابل من تصعيد مستوى حملاته إلى حدّ اتهام موسكو بشنّ «هجمات عسكرية» مباشرة على الأراضي الأوروبية.

حلقة الجاسوس

أجدد حلقة من هذا المسلسل الغربي الطويل غرضت فصولها الشهر الماضي في مدينة سالزبري البريطانية، حيث تحوّلت جريمة تسميم الجاسوس الروسي السابق سيرغي سكريبال وابنته إلى «هجوم عسكري (روسي) على أراضي المملكة المتحدة»، وفق رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي، التي أضافت أيضاً أنّ «الروس سبق أن استخدموا غازات الأعصاب في هجمات على الأراضي الأوروبية... كنوع من الاستهزاء والازدراء والتحدي».

في حديث إلى «الأخبار»، يستغرب الخبير البريطاني في شؤون العلاقات الخارجية ورئيس تحرير مجلة «بوليتيكس فيرست»، ماركوس بابادوبولوس، ربط الحديث عن حرب باردة جديدة بحادث تسميم الجاسوس السابق، الذي أفادت تقارير صحافية، الأسبوع الماضي، بأنه بعد أيام من تعافي ابنته «تجاوز مرحلة الخطر»، في حين تبحث بريطانيا إمكانية منحهما هوية جديدة وتوطينهما في الولايات المتحدة.

«ما نراه اليوم هو ثمرة سنوات من التراجع الأميركي والتقدّم الروسي، وهو اعتراف ضمني من قبل الولايات المتحدة بتفكك النظام الأحادي القطب»، يؤكد بابادوبولوس، متّهماً لندن في السياق باستغلال حادث التسميم لـ«زيادة الإنفاق العسكري على الدفاع وتبرير تعزيز الوجود العسكري لحلف شمال الأطلسي في المناطق القريبة من الحدود الروسية» (راجع كادر الخارجية الروسية أدناه). في هذه الحلقة، لعب الإعلام الغربي المسيطر دوراً متقدماً، علماً بأنّ الاتهام البريطاني لروسيا بشأن الجاسوس لم تثبته حتى المخبرات البريطانية، أهمها المختبر العسكري في «بورتون داون»، على سبيل المثال، يؤكد الصحافي جوناثن لاندي، في حديث إلى «الأخبار»، أنّ «روسيا قامت بتسميم سكريبال». لكنّ هذا الصحافي الذي كان من بين القلائل الذين شكّكوا سابقاً في مزاعم إدارة الرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش لغزو العراق، وتحوّل في حينه إلى قدوة في العمل الصحافي «المستقل والنزيه»، يتهرّب من الإجابة حين يُسأل عن «الدليل» الذي يُدين موسكو بشكل قاطع، بلجوء إلى مهاجمة وسائل الإعلام الروسية «الناطقة باسم الكرملن»، التي تعمل على «الترويج للأكاذيب بهدف إرباك الرأي العام وتضليله».

صراع طويل مع واشنطن لا لندن

«الصراع المتجدّد حول الخطط الأميركية لبناء قواعد الدرع الصاروخية في بولندا وجمهورية التشيك، أي في المناطق الواقعة قرب الأراضي الروسية، هو دليل جديد على أن العلاقات الأميركية الروسية تتدهور بشكل سريع، وتتجه نحو اندلاع حرب باردة جديدة»، قال كوهين في مقالة أخرى نشرها عام 2007 عقب تعرضه لانتقادات واسعة تأجّجت بصورة خاصة بعد اتهامه «معظم المسؤولين الأميركيين والصحافيين والأكاديميين» بـ«تجاهل» حقائق النهوض الروسي، لأنّهم يخافون «مواجهة سياساتهم غير الحكيمة وتحليلاتهم الخاطئة منذ انهيار الاتحاد السوفياتي عام 1991».

بعد مرور عشرة أعوام، أي في تشرين الأول الماضي، كتب كوهين الذي سيصبح رئيس تحرير «ذا نيشن» التي تُعدّ راهناً المجلة الأسبوعية الأقدم في الولايات المتحدة، مقالةً جديدة بعنوان «الحرب الباردة الجديدة أكثر خطورة من سابقتها»، مضيفاً إليها في وقت لاحق عاملاً سابعاً في مقالة بعنوان «روسيا فوبيا في الحرب الباردة الجديدة»، نشرها في الرابع من حزيران الجاري، وهو: «إشاعة الرهاب والخوف من روسيا».

هذه العوامل بدأت تتجلى في الأشهر الأولى من العام الجاري، بهدف تدعيم وجهة نظره، حدّد كوهين ستة عوامل أساسية تجعل «الحرب الباردة الجديدة أكثر خطورة من سابقتها»، مضيفاً إليها في وقت لاحق عاملاً سابعاً في مقالة بعنوان «روسيا فوبيا في الحرب الباردة الجديدة»، نشرها في الرابع من حزيران الجاري، وهو: «إشاعة الرهاب والخوف من روسيا».

هذه العوامل بدأت تتجلى في الأشهر الأولى من العام الجاري، لا بل جعلتها «أزمة الجاسوس الروسي» ملموسة، خاصة لناحية دور الإعلام فيها. إلا أنّ درجة الخطورة ترتبط بشكل مباشر، وفقاً للباحث الأميركي، بواقع أنّ «مركز التصادم» في هذه الحرب لن يكون عند الحدود المشتركة لبرلين المنقسمة، أو في ما كان يُسمى «العالم الثالث»، بل «على حدود روسيا مباشرة» ويمتد من دول البلطيق وأوروبا الشرقية وصولاً إلى أوكرانيا والبحر الأسود، حيث «نشهد نمواً متسارعاً للوجود العسكري الأطلسي»، يتمثّل في إرسال المزيد من القوات والعتاد والطائرات والسفن الحربية، بالإضافة إلى إنشاء قواعد الدفاع الصاروخي. ومنذ عام 2016، يقيم «الناتو» مناورات ضخمة في بولندا، التي ينظر إليها الغرب كـ«خاصرة روسيا الضعيفة» في الشرق الأوروبي، وكذلك في دول البلطيق الثلاث: لاتفيا، إستونيا، وليتوانيا المتصلة اقتصادياً وجغرافياً بدولتي السويد وألمانيا، وهي باتت تُشكّل أولوية لروسيا قد تطغى على الأولوية البولندية.

الوجود العسكري الأجنبي الأضخم على الحدود الروسية منذ الغزو الألماني النازي عام 1941، دفع موسكو إلى تأمين حدودها من خلال العمليات العسكرية المضادة، كما في جورجيا وأوكرانيا، وزيادة حشدها العسكري في كالينينغراد، المنطقة الروسية المطلّة على البلطيق، والواقعة بين ليتوانيا وبولندا. للإشارة، في تموز الماضي، أعلن وزير الخارجية البولندي، فيتولد فاشيكوفسكي، أنّه «فور انتهاء أعمال بناء قاعدة الدفاع الصاروخي الأميركي في مدينة ريدزيكوفو، سيتم نشر قوات الأطلسي والقوات الأميركية فيها»، مشيراً إلى إمكانية أن تصبح بولندا «دولة من الفئة الأولى» في الحلف. وجاء ذلك بعد أكثر من عام على تدشين أوّل قاعدة للدرع الصاروخي الأميركي، مزودة بمنظومة «إيجيس أشور» في بلدة ديفيسلو الرومانية.

إزاء هذه الوقائع، يدعو ستيفن كوهين إلى إجراء مقارنة بين الوجود العسكري «الملموس والواضح» لحلف شمال الأطلسي حول روسيا، وما يشكله الأمر من تهديد عسكري مباشر لموسكو، وبين «روسيا غايت» ومزاعم «التدخل» الروسي في الانتخابات الرئاسية الأميركية عام 2016، التي «لا دليل» عليها سوى ما ينشره الإعلام الموالي لدعاة الحرب.

سوريا: مركز تصادم أيضاً

«مركز التصادم» الثاني في هذه الحرب هو سوريا نفسها. الباحث الأميركي يرى «احتمالاً أكبر» لنشوب نزاع عسكري أميركي روسي مباشر في سوريا، لا سيما «مع اقتراب القوات السورية المدعومة من روسيا من هزيمة المقاتلين المناهضين للأسد، والذين ينتمي معظمهم إلى منظمات إرهابية». وتتجه الأنظار اليوم إلى سوريا مع تصاعد الحديث عن ضربة أميركية قد تكون «القشة التي ستقصم ظهر البعير» بين واشنطن وموسكو، فتقود نحو «اندلاع مواجهة عسكرية مباشرة» بين البلدين (تُذكر هنا تغريدة ترامب نفسه أمس، التي قال فيها إنّه سيقوم بقصف سوريا بصواريخ «حديثة ونذكية»، داعياً روسيا إلى «الاستعداد»، ومضيفاً أنّ العلاقات الثنائية «أسوأ الآن مما كانت عليه في أي وقت مضى، بما في ذلك أثناء الحرب الباردة»).

قضية سكريبال «القذرة»

الأسبوع الماضي، أعلنت المتحدثة باسم وزارة الخارجية الروسية ماريا زاخاروفا، في مؤتمر صحافي، أنّ «تضخيم لندن لقضية سكريبال هو محاولة لتبرير النفقات العسكرية»، وهو «تكتيك» استخدمته واشنطن وقامت بتسويقه وتصديره إلى العالم، لا سيما إلى الدول الأعضاء في «الناتو». ومذكّرةً بتصريح لوزير الدفاع البريطاني طالب فيه بتحديث القوات المسلحة البريطانية على خلفية «الهجوم بدم بارد على سكريبال»، قالت زاخاروفا: «صلة مباشرة: روسيا هاجمت بريطانيا، نريد أموالاً لأننا نحتاج إلى المزيد من الأسلحة»، فيما وصفت القضية بـ«القذرة».

مقالة

صلاح والعرّاب: البحث عن معنى

عبدالله السناوي *

ثمة تشوق كامن في مصر بحثاً عن معنى جديد يلهم شبابها الأمل في المستقبل والقدرة عليه. الظاهرة لا تخطئها عين تنظر تحت سطح المجتمع بتفاعلاته وحوادثه وأحلامه وإحباطاته. وقد تجلت في الولع الجماعي بمحمد صلاح لاعب المنتخب الوطني وجناح فريق «ليفربول» الإنكليزي، الذي أصبح ظاهرة اجتماعية بقدر ما هو ظاهرة رياضية، كما في لوعة فراق الأديب أحمد خالد توفيق، من قطاعات شابة واسعة حتى أصبح وداعه في جنازته وعلى شبكة التواصل الاجتماعي ظاهرة سياسية بقدر ما هو ظاهرة ثقافية.

قد يُعزى الولع بصلاح إلى تمكنه من التقدم باستمرار لمستويات تكاد تدفع به إلى مرتبة لم تكن متصورة في أي خيال بعوالم كرة القدم ـ اللعبة الأكثر شعبية في العالم بأسره. هذا طبيعي ومفهوم في أي بلد، فهو احتفاء مستحق بالموهبة والجدية والإصرار على النجاح، لكنه لا يتوقف عند خطوط الرياضة.

مدى الاهتمام بمنافساته وتقصّي أخباره تجاوز الطبيعي والمفهوم إلى حالة تبني عام، كأنه ابن لكل أسرة أمره يعنيها واضطراد تفوقه يخصها، حتى الذين لم يسبق لهم مشاهدة مباراة كرة قدم واحدة. لماذا صلاح بالذات؟ السؤال في علم الاجتماع، كما علم النفس، داخل في السياسة ورسائلها إلى المستقبل. الولع بصلاح يحدث تحت الضوء الباهر. وهو ما يصعب أن يُعزى إلى لوعة فراق أحمد خالد توفيق.

كان ذلك مباغتاً للنخب السياسية والثقافية، التي دأبت على النظر إلى أعماله بشيء من الاستخفاف، أو تجاهل قراءتها دون أن تخضع أعماله للنقد، أو تلحظ في أي وقت مدى تأثيره على الأجيال الناشئة في سن المراهقة، حتى أنها أطلقت عليه «العرّاب».

وفق المستقر من معايير نقدية لا يُنظر باهتمام إلى كتب «الجيب»، التي تخاطب صغار السن، أو المراهقين، بقصص تتداخل فيها عوالم الرعب والفانتازيا وما بعد الطبيعة. بعد رحيله واكتشاف مدى شعبيته في أوساط الشباب جرت اعتذارات بلا حد من شخصيات عامة لم يسبق أن قرأت له حرفاً واحداً.

الاثنان من خارج السياق الرسمي. الأول، اكتشف حجم موهبته في الملاعب الأوروبية، ولو قُدّر له أن يظل لاعباً في مصر لما تمكن من يصل إلى هذا المستوى المدهش. عندما عمل من ضمن قواعد حديثة ومنضبطة قُدّر له أن يصل إلى ما وصل إليه. والثاني، نُظر إليه بتجاهل كبير حتى اكتشف المجتمع كله مدى تأثيره على أجيال الشباب، فهو الذي علمها، بلا ادعاء الأستاذية، عادة القراءة وعرف كيف يخاطب احتياجاتها في الاطلاع على العصر بسلاسل جيب وقصص مبسطة ومثّل قدوة دعتهم لرثائه، كما لم يحدث مع أديب آخر مهما علت مكانته.

لقد نجح أستاذ في كلية طب جامعة طنطا، لم يغادر مدينته ولا أقام في العاصمة بأي وقت، في ما لم تنجح فيه المؤسسة الثقافية الرسمية في نشر عادة القراءة، من دون أن يحصد في حياته أي اعتراف بفضله حتى داهمتنا الحقيقة بأننا لا نكاد نعرف شيئاً عما يحدث تحت سطح المجتمع.

كلاهما اكتسب تأثيره على الوجدان العام من «القوة الأخلاقية» وقدر التواضع الذي يتمتع به قبل أي شيء آخر. بقدر تواضع صلاح وارتباطه بأهل قريته والتبرع في أعمال خير، دخل قلوب عامة المصريين.

> قد يكون خالد أحمد توفيق عرّاباً غير معلن لـ«ثورة يناير»

وبقدر نجاحه في ظروف شبه مستحيلة عندما كان مضطراً في بداياته لأن يسافر للعاصمة للتدرب واللعب ويعود في نفس اليوم لقريته البعيدة، أصبح قدوةً لمن يطلب نجاحاً، أو تجاوز إخفاق وتعثر في حياته.

كان مثيراً أن ينجح إعلان تلفزيوني لمكافحة الإدمان في اجتذاب عشرات آلاف المدمنين لطلب التعافي تأثراً بدعوته. حسب الأرقام الرسمية، فإنّ نسبة تعاطي المخدرات في مصر ضعف المعدلات الدولية، وهذه كارثة منذرة تعكس خللاً اجتماعياً فادحاً في بنية أي تطلع للمستقبل. بقوة النموذج وصدقيته، نجح لاعب كرة قدم في ما تعثرت فيه وزارات الشباب والثقافة والداخلية والأوقاف ومؤسسات أخرى في الدولة.

بذات القدر دخل أحمد خالد توفيق قلوب قرائه من الشباب اليافع وسحره في بساطة كتاباته بصلب اهتماماتهم، رغم أن هذا النوع من الأدب لا يحظى بالاعتراف النقدي في مصر.

لماذا حظي أحمد خالد توفيق بمثل هذه الشعبية، التي لم يكن أحد على دراية بها حتى داهمتنا حقائق وداعه؟ قد يكون، بطريقة ما، عرّاباً غير معلن لثورة يناير بالنظر إلى أنّ قراءه هم أنفسهم الذين تصدروا مشاهدها. لم يكن سياسياً بالمعنى المتعارف عليه، رغم ميله بنصوص منشورة إلى مشروع جمال عبدالناصر، لا انضم إلى حزب ولا شارك في حركات احتجاجية، لكنه لعب دوراً جوهرياً ومجهولاً في تشكيل وعي الجيل، الذي تصدر مشاهد «يناير».

ذلك الجيل اكتسب تجربته السياسية الأولى، كأنها بروفة مبكرة للثورة، في تظاهرات تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية عند اغتيال الطفل الفلسطيني محمد الدرة مطلع القرن.

لاحظت أستاذة الأدب الإنكليزي والأديبة الراحلة الدكتورة رضوى عاشور، أنّ هؤلاء التلاميذ الصغار، بإضافة عشر سنوات، هم أنفسهم جيل «يناير». ما يجب أن نلاحظه، الآن، أنهم من قراء أحمد خالد توفيق. ربما يكون صلاح ابن ذلك الجيل، أحد هؤلاء القراء.

المثير أن الاثنين من منطقة جغرافية واحدة بمحافظة الغربية في دلتا مصر. ما لا نريد أن نلتفت إليه أننا أمام أجيال مختلفة بمفرداتها وخيالها وروحها العامة واتساع اتصالها، عبر الوسائط الحديثة، بالعالم. هذا ما لا يمكن كبته، أو مصادرته، كما تكاد تستحيل العودة إلى أيّ أساليب قديمة في الحكم مهما كانت الذرائع والأسباب، إلا بأثمان باهظة.

إنّه العصر عندما تتحدث حقائقه باحتياجات جديدة وأجيال جديدة تبحث عن معنى بعدما تكسرت أحلامها بإجهاض تطلعات ثورتي «يناير» و«يونيو» في بناء دولة مدنية حديثة، دولة قانون ومؤسسات، دولة توفر بيئة احتضان لمواهبها في الأدب والثقافة والإبداع والبحث العلمي... والرياضة.

مصر دولة شابة بنسبة 60% من سكانها، والصدام مع الشباب هو صدام مع المستقبل بتنائجه معروفة سلفاً. أسوأ ما حدث بعد «يناير» وفوزته الأولى أنّ أطرافاً عديدة سعت إلى كسر الأجيال الجديدة. في البداية جرت عملية تقديس بمبالغات مفرطة قبل أن تنقض عليهم اتهامات الشيطنة بقسوة بالغة. لا أمل في استقرار ممكن، أو تقدم إلى الأمام، إلا بمصالحات حقيقية مع الأجيال الجديدة، حوار بلا وصاية وإفساح المجال لكل إبداع بلا مصادرة.

الشباب، بالذات، موضوع البحث المضني عن معنى أنهم يستطيعون صياغة حياتهم بما يتوافق مع عصرهم، الذي يعيشون فيه. هذا ما تستحقه مصر التي تبحث بالكاد عن أمل.

*كاتب وصحافي مصري

تحطم طائرة عسكرية جزائرية

قُتل 257 شخصاً في تحطّم طائرة تابعة للجيش الجزائري، أمس، بعد إقلاعها من «قاعدة بوفاريك» الجوية على بعد نحو 25 كيلومتراً جنوب الجزائر العاصمة، وفق ما أكدت وزارة الدفاع التي أوضحت أيضاً أنّ القتلى هم في غالبيتهم عسكريون وأفراد عائلاتهم، فيما لم يتأكد حتى مساء أمس من وجود «قياديات من جبهة البوليساريو» على متن الطائرة.

والطائرة من طراز «إليوشن آي إل 76»، وهي سوفياتية ثم روسية الصنع يمكن استخدامها للنقل المدني أو العسكري، ويمكنها نقل ما بين 126 و225 شخصاً، وفق موقع الشركة. وأفادت وزارة الدفاع بأنّ الطائرة تحطمت صباحاً خلال قيامها «برحلة بين بوفاريك ـ تندوف ـ بشار». وتبعد تندوف نحو 1800 كيلومتر عن العاصمة بالقرب من الحدود مع المغرب والصحراء الغربية. أما «بشار»، فهي على بعد نحو ألف كيلومتر جنوب غرب الجزائر، وتضم قاعدة عسكرية كبيرة بالقرب من الحدود المغلقة بين الجزائر والمغرب.

(أ ف ب)